

منهج كتابة التاريخ بين البيزنطيين والفرس والعرب:

## أقصوصة «عروس الغبن»

الأب روبر بندكتي اليسوعي

من الحقائق المعروفة في تاريخ الآداب اليونانية الوسيطة تأثرها العميق بروائع الأدب اليوناني القديم. فقد اجتهد الكتاب البيزنطيون وشعراؤهم في اقتداء مثال اليونان القدامى وهم ينظمون الشعر ويكتبون التاريخ ويروون القصص؛ كذلك اقتدوا بهم في إتقان اللغة اليونانية القديمة في الكتابة الأدبية والتأمل اللاهوتي، على الرغم من كون هذه اللغة قد اندثرت عصرئذ فسقطت من الاستخدام الحي. فقد اصطلح البيزنطيون أنفسهم على هذا المنحى في الكتابة الأدبية بعبارة «الاقْتدَاءُ بِالْقَدَامَى»<sup>(١)</sup> («ἀρχαίσειν» . «μίμησις»).

### الاقْتدَاءُ بِالْقَدَامَى وَالْمُؤَرِّخُونَ الْبِيزَنْطِيُّونَ

لا تُستثنى من ظاهرة الاقتداء بالقديمى الكتابة التاريخية فقد تأثر المؤرخون البيزنطيون بروائع أسلافهم تأثراً واضحاً، لا سيما باثنين منهم: هما «توكيديديس» و«هيرودوتس» الملقب بـ «أبي التاريخ». يبين أثر الكتابة التاريخية اليونانية في مؤلفات التاريخ البيزنطي على مستويات عدة، منها أولاً اللغة

(١) في شأن معنى «الاقْتدَاءُ بِالْقَدَامَى» في الآداب اليونانية للتوسط ولجمع:

Herbert HUNGER: Die hochsprachliche profane Literatur der Byzantiner. Bd. I.  
München: H.G.Beck, 1978. 65-74. Coll. «Byzantinisches Handbuch», V 1.

وأسلوب الكتابة، ثم التصورات والمفاهيم الجغرافية والأثنوغرافية، وأخيراً بعض القوالب القصصية التي استعارها المؤرخون البيزنطيون من الروائع اليونانية مستعينين بها في صوغ بعض الأحداث المعاصرة. فعلى من يدرس مؤلفات التاريخ البيزنطية أن يأخذ بعين الاعتبار هذه العلاقة الحميمة بينها وبين نماذجها الكلاسيكية لكي يقدر، من جهة، المعلومات الواردة فيها تقديراً نقدياً صحيحاً ويتبسط، من جهة أخرى، من نصها المعاني والمعطيات التي يحويها استباطاً رصيناً<sup>(١)</sup>.

يصدق هذا القول على مؤلفات بريسكس الخطيب<sup>(٢)</sup> التي تُعدّ من أهم المصادر لمعرفة الحياة الاجتماعية عند قبائل «المون» في عصر الملك «آبلا». لقد تتقّف هذا الموظف الإمبراطوري الكبير بثقافة يونانية واسعة وأتقن اللغة الكلاسيكية حيث بها حرّر تقاريره الرسمية وألّف كنه التاريخية. يكتشف قارئ نصوص هذا المؤرخ إنه قد اجتهد في الاقتداء بمؤلف هيرودوتس<sup>(٣)</sup>. إن الأدلة على عملية الاقتداء هذه لعديدة. فمن جهة فقد درج على تسمية الأقسام «البربرية» المعاصرة بأسماء مقتبسة من «تاريخ» هيرودوتس: هكذا أضفى مثلاً على شعب «المون» - وهم قوم من الأقسام التركية القديمة - اسم «الإسكيت

(١) Gyula MORAVCSIK: Byzantinoturcica. Die byzantinischen Quellen der Geschichte der Türkvolker. Berlin: Vrl. der Deutschen Akademie der Wissenschaften, 1958. Bd. I. 167-168.

(٢) أوردت المصادر التاريخية اليونانية المترجمة و/أو البيزنطية اسم بريسكس الخطيب بالصيغة التالية:

ΠΡΙΣΚΟΣ ὁ ΠΗΤΩΡ

وبدلّ اللقب «الخطيب» / «ΠΗΤΩΡ» ، من جهة، على درجة أكاديمية ومعني كونه خريجاً من إحدى الجامعات اليونانية؛ ويشير، من جهة أخرى، إلى كونه موقفاً إمبراطورياً مرتفع المستوى يتولّى مهمات ذات أهمية كبيرة، فقد شغل بريسكس فعلاً ولمات عدة منصب مبعوث إمبراطوري إلى ملك المون آبلا وغيره من العواهل «البرابرة» المعاصرين، راجع:

Henri LECLERCQ: École. IN: Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne et de Liturgie. Tome IV 2. Paris: Letouzey et Ané, 1921. 1762-1782. = E. POTTIER: Educatio. IN: Dictionnaire des Antiquités Grecques et Romaines. II 1: pp. 485-89. = H. HUNGER: Literatur 65-74. = DU CANGE: Glossarium mediaevae et infimae graecitatis. s.v. πῆτωρ pp. 1294-1296.

Wilhelm SCHMIDT - Otto STÄHLIN: Geschichte der griechischen Literatur. II (٣) I. München: H.G.Beck, 1961. pp. 1036-1038. Coll. «Handbuch der Klassischen Altertumswissenschaft». VII 2.2. = Moravesik: Byzantinoturcica I. 479-488.

الملكيون» الذي قد استعاره من سلفه الكبير<sup>(١)</sup>. وقد استعان الخطيب، من جهة أخرى، بالقوالب القصصية والأخبارات الروائية المكتسبة من مؤلف «أبي التاريخ» وهو يعرض الأحداث المعاصرة: هكذا عزا التحركات الشعبية الكبرى، التي نشبت إثر وفاة الملك «أيتلا»، إلى هجوم الجوارح الأسطورية المسماة «oi drupes»، ذلك استنادًا إلى هيروdotus الذي علل ترحال «الإسكيت الملكيين» بغزو هذه الكائنات العجيبة؛ هكذا يربط أيضًا أسطورة «سيف الله» الهونبة بالأسطورة الإسكيتية المتعلقة بـ«سيف آرس» إله الحرب<sup>(٢)</sup>.

من الواضح أن منحى «الافتداء بالتقدمي» لا يلبث أن يطرح تساؤلات معينة حول قيمة مؤلفات التاريخ البيزنطي عمومًا وكتابات بريسكس الخطيب خصوصًا. إلا أنه على الباحث أن يفحص عن كل نص وهو يأخذ بعين الاعتبار مفهوم التاريخ الذي درج عليه الخطيب وزملاؤه من اليونانيين والبيزنطيين في كتابة التاريخ. فقد رأى هؤلاء في التاريخ فنًا أدبيًا وبحثًا مدققًا في الأحداث على حد سواء، حيث يكتسي فيه الشكل الأدبي الأهمية نفسها التي يكتسبها التدقيق في عرض المعلومات. وعليه نستطيع أن نبيّن صراع وجهتي النظر هذا في مؤلف الخطيب ممثلًا بقصة «عروس الغبن» التي تمثل خاصية من خواص منحاه في كتابة التاريخ.

(١) لقد نُتِعت عمليّة نقل اسم «الإسكيت الملكيين» / «ΟΙ ΣΚΥΘΑΙ ΟΙ ΒΑΣΙΛΕΙΟΙ»

واضافته على قبيلة الهون التابعة لملك آيتلا بناء على كون الشعبين قد قعما من المناطق الواقعة في جنوب روسيا. راجع:

EXCERPTA DE LEGATIONIBUS, ed. C. DE BOOR. Berlin, 1903: 121:27, 122: 13, 125: 7, 141: 15, 150: 15, 577: 26.

هذا وقد درج المؤرخون البيزنطيون عمومًا على إضفاء أسماء الشعوب القديمة على معاصريهم من الشعوب «البربرية».

Moravcsik: Byzantinoturcica, I 482-483.

(٢) راجع:

## رواية «عروس الغبن» موضوعة أدبية رحالة

□ تلکم رواية «عروس الغبن» بحسب بريسکس<sup>(١)</sup>:

وأخيراً أذن ملك الفرس للمبعوث [البيزنطي] كونستانسوس في السفر إلى بلاده، وقد جمعه - كما سبق أن قيل - يتظر مدة طويلة في الرها، فأمره بالثول بين يديه. لم يكن الملك وقتذاك يحكث في المدن، بل على الحدود الفاصلة بين بلاده وبلاد الهون الكيداريين. فقد حارب قبيلة الهون لهذا السبب: إنهم قد رفضوا دفع الجزية التي فرضها عليهم ملوك الفرس والپارتيين. كان والد ملك الهون الراهن من ذبي قبل قد رفض دفع الجزية فخاص الحرب. ثم ورثها ابنه كونفخاس مع الملك واستمر فيها وهو يتسب للفرس في خسائر جسيمة. وأخيراً خطر للفرس أن يلجأوا إلى حيلة في سبيل إنهاء الحرب. فقد بعث ملك الفرس فيروز مرسلين إلى خاقان الهون كونفخاس يطلب إليه السلم فيما يقترح له عقد حلف يُختم بزواج شقيقته. ذلك أن خاقان الهون ما زال شاباً ليس له أولاد. وافق خاقان الهون على الاقتراح وتبيأ للزواج، إلا أنه لم يتزوج شقيقة فيروز، بل امرأة أخرى زُقت إليه مجلوة وكأنتها ابنة ملك. هذه المرأة قد بعثها فيروز إلى الهون لعلها تعيش سعيدة عيشة عروس ملكية إذا ما احتفظت بالحيلة في طي الكتمان؛ أما إذا فضت السر فيكون مصيرها الموت لأن عاهل الكيداريين لن يتحمل عار أن نکح أمة عوضاً عن ابنة ملك. هكذا تصالح فيروز مع خاقان الهون. إلا أن الخدعة لم يكب لها أن تدوم. ذلك أن المرأة قد خبت أن تعان العار وتموت مية العذاب إن أطلع زوجها على حقيقة نسبها فكشفت عن الخدعة بأسرها. وعليه أنناها كونفخاس على كلمة صدقها هذه فاحتفظ بها زوجة له، إلا أنه تعمد الانتقام من فيروز على خادعته. فقد تظاهر أنه ينوي محاربة جيرانه من القبائل فيحتاج ليس إلى مقاتلين، إذ في أمرته جيش عرمرم، بل إلى قادة وضباط أكفاء. فبعث إليه فيروز ثلاثائة من نبلائه. هؤلاء النبلاء قد أعدم كونفخاس بعضهم ونكل ببعضهم الآخر فردهم إلى فيروز مشوهين كي يقولوا له إن ذلك هو عقاب

CORPUS SCRIPTORUM HISTORIAE BYZANTINAE, ed. B.G.Neibuhr. (١)  
Bonn: Editiones Weber, 1829. Pars I.: Prisci Rhetoris et Sophistae Excerpta De  
Legationibus Romanorum ad Gentes, cap. 12: pp. 229-221.

المخادعة. فاندلعت الحرب بينها عنوة فتعاركا بمتف وشراسة. لذلك استقبل فيروز كورستانسيوس في مدينة غورغان حيث كان وقتذاك يعسكر وضيّفه مدة أيام ضيافة فاخرة، ثم صرفه إلى دياره وهو لا يقطع على نفسه عهداً<sup>(١)</sup>.

إن إبدال العروس للملكية من الأمة التي رقت إلى الملك عوضاً عن الأميرة إنما هو الموضوعة الرئيسة في هذه الرواية، حيث يعزو بريسكس الخطيب إلى هذه الحيلة سبب الحرب الدائرة بين الفرس والهنود. إن هذه الموضوعة الأدبية لواردة في مؤلف هيرودوتس. يستهل «أبو التاريخ» رواية الحروب للفارسية المصرية وهو يشرح في مقدّمة القسم الثالث من «التاريخ» أسبابها، ومن عداد هذه الأسباب إبدال العروس للملكية من امرأة أخرى.. ذلك أن عموصة ملك مصر قد احتال على كامبوجيا ملك الفرس وهو يزق إليه ابنة سلفه المخلوع عوضاً عن ابته.

□ تلکم رواية هيرودوتس (1. III):

«وخاض إذا كامبوجيا بن كورش الحرب ضدّ عموصة هذا ففاد في حملته، إضافة إلى الشعوب للموالية الأخرى، إهليليين القاطنين في إيونيا وإبوليا. أما سبب الحملة فكان كالتالي: يمضت كامبوجيا مقيراً إلى عموصة يطلب إليه ابته للزواج. هو جعل ثقك متقاداً إلى تصبحة رجل مصري. تقم على عموصة أشدّ تقمة. ذلك أن هذا الأخير قد فصله عن امرأته وأولاده إذ اختاره من بين جميع الأبطال للمصريين فبعثه إلى خدمة الفرس ملتباً كورش الذي كان قد طلب إليه أحسن طيب عيّن في مصر. ولشدة نغمته حرض كامبوجيا على أن يطلب ابنة عموصة للزواج وهو يقصد أحد الأمرين: إما أن يلبي عموصة هذا الطلب، الأمر الذي من شأنه أن يغمّه غمّاً شديداً؛ أو أن يرفضه مما يثير العداء بينه وبين كامبوجيا. أما عموصة فقد اضطرب خوفاً من قوة الفرس وارتبك غير عارف أيعطي ابته أم يرفضها وذلك لعلمه أن كامبوجيا

(١) تندرج أقصرصة «عروس الفرس» في إطار الحروب التي دارت بين قبائل الهنود الكبدانيين وملك الفرس فيروز (٤٥٩ - ٤٨٤)؛ وقد انتهت هذه الحروب إلى انتصار فيروز على كورنخاس ورجل هذا الأخير نحو الشرق. وراجع:

Arthur CHRISTENSEN: L'Iran sous les Sassanides. Copenhagen: E. Munksgaard, 1944 (2nde éd.), 290-294.

لا يريد لها زوجة له، إنما يبغيها سرّية. فلجأ إلى هذه الحيلة. إن إحدى بنات الملك الأسبق وَعَجَبْرِيَا لم تزَل تعيش: كانت هذه الحسناء الجميلة واسمها نيتي آخر عضو بقي قيد الحياة من الأسرة المالكة السابقة. هذه الحسناء قد ألبسها باللباس الفاخر وزينها الزينة الذهبية فأرسلها إلى بلاد الفرس وكأنتها ابته. وبعد ذلك بتليل سلم عليها كامبوجيا يسميها باسم أبيها عموصة. أما الحسناء فقد قالت له: «يا أيتها الملك! ألا تلاحظ أن عموصة بجتال عليك؟ إنه قد زينني وزنني إليك مجلوة وكأني ابته. في الحقيقة إنني ابنة وعجبريا، ذاك الذي كان سيده، ثم تمرد عليه فقتله بمساعدة المصريين! «وإثر هذا القول ولهذا السبب اشتاط كامبوجيا غيظًا وخرج على المصريين.

تلك هي رواية الفرس».

□ كذلك نعث على الموضوع الأدبية بعينها في مؤلف البلاذري تاريخ «فتح البلدان» الذي يروي قصة زواج خاقان الترك سينجيو على ابنة ملك الفرس خسرو أنوشروان استنادًا إلى مصادر فارسية<sup>(١)</sup>. تلکم رواية البلاذري<sup>(٢)</sup>:

C.H.BECKER - F. ROSENTHAL: Al-Balādhurī. Encyclopédie de L'Islam. N.E.. (١)  
Tome I 1001-1002.

(٢) البلاذري: «كتاب فتح البلدان». القاهرة: شركة طبع الكتب العربية، ١٩٠١، ص: ٢٠٣ - ٢٠٤. لقد وردت هذه الرواية مصاغة صياغة تكاد تطابق النص الوارد عند البلاذري في حقيقته في مؤلف المؤرخ الفارسي الأصل ابن خرداذبه: «كتاب المسالك والممالك»، ص ٢٦٠ - ٢٦١. راجع:

BIBLIOTHECA GEOGRAPHORUM ARABICORUM, Pars VI., pp. 260-261.  
ED. M.J. DE GOEJE. Leyden: Brill, 1889.

من الواضح أن ابن خرداذبه، إذ يستبدل «الترك» المذكورين عند البلاذري وبالخرز، قد خلط بين القومين التركيين أسوة بغيره من المؤرخين العرب والفرس والأمن والبيزنطيين. ذلك أن هاذين القومين قد شكلا، حتى عام ٦٣٠م، دولة واحدة حيث احتل الخزر المناطق الغربية المتاخمة على حدود المملكة الساسانية، بينما قطن الترك بالمناطق الشرقية، الأمر الذي حدا بالفرس إلى اختار حدياتهم الشرقيين أجمعين خزرًا. وقد استمر هذا الخلط بين القومين في الأدبيات التاريخية اللاحقة. راجع:

Joachim MARQUART: Êrānsāhr nach der Geographie des Pseudo-Moses Chore-nac'i. Berlin: Weidmann, 1901. pp. 55-58. Note 4. Coll. «Abhandlungen der königlichen

ثم إن أنوشروان كتب إلى ملك الترك يسأله المودعة والصلح وأن يكون أمرهما واحداً وخطب إليه ابته ليؤنسه بذلك وأظهر له الرغبة في صهره وبعث إليه بأمه كانت تبثها امرأة من نساؤه وذكر أنها ابته فهدى التركي ابته إليه . ثم قدم عليه فالتقى بالبرشلية وتنادما أياماً وأنس كل واحد منهما بصاحبه وأظهر بره . وأمر أنوشروان جماعة من خاصته وثقاته ان يبيتوا طرفاً من عسكر التركي ويحرقوا فيه ففعلوا فلما أصبح شكوا ذلك إلى أنوشروان فأنكر أن يكون أمره أو علم أن أحداً من أصحابه فعله . ولما مضت لذلك ليل أمر أولئك القوم بمعاودة مثل الذي كان منهم ففعلوا فضج التركي من فعلهم حتى رفق به أنوشروان واعتذر إليه فسكن . ثم إن أنوشروان أمر فالتقت النار في ناحية من عسكره لم يكن بها إلا أكواخ قد اتخذت من حشيش وعيدان فلما أصبح ضج أنوشروان إلى التركي وقال : «كاد أصحابك يذهبون بعسكري وقد كافأني بالظنة» . فحلف أنه لم يعلم لشيء مما كان سبباً . فقال أنوشروان : «يا أخي جندينا وجندك قد كرهوا صلحنا لانقطاع ما انقطع عنهم من النيل في الغارات والحروب التي كانت تكون بيتنا ولا أمن أن يحدثوا أحداثاً يفسد قلوبنا بعد تصافينا وتخالصنا حتى نعود إلى العداوة بعد الصهر والمودة والرأي أن تأذن لي في بناء حائط يكون بيني وبينك ونجعل عليه باباً فلا يدخل إليك من عندنا وإلينا من عندك إلا من أردت وأردنا» . فأجابه إلى ذلك فانصرف إلى بلاده وأقام أنوشروان لبناء الحائط فبناه . (. . .) فلما فرغ من بنائه علق على المدخل من أبواب حديد ووكل به مائة فارس يجرسونه بعد أن كان موضعه يحتاج إلى خمسين ألفاً من الجند وجعل عليه دبابية . فقبل لخاقان بعد ذلك أنه خدعك وزوجك غير ابته وتمحصن منك فلم يقدر على حيلة» .

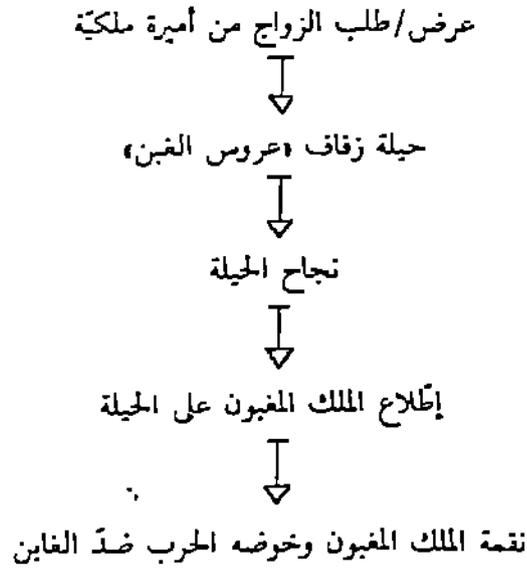
الجدير بالذكر أن هذه الرواية بعينها قد وردت في مؤلف ابن خردادبه تاريخ «كتاب المسالك والممالك» مصاغة صياغة تكاد تطابق نص البلاذري في حرقته ، مع هذا الفارق : لقد أبدل ابن خردادبه خاقان «الجزر» من خاقان «الترك» . من الواضح أن الروایتين تنحدران من مصدر واحد فتشكلان قسمة واحدة<sup>(١١)</sup> .

glischen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. philologisch-historische =  
Klasse», N.F., III 2.

يتبين من المقارنة بين الموضوعات المكوّنة أن الروايات الثلاث مبنية في البناء القصصي ذاته حيث تتألف الأحبكة القصصية الأساسية من المقومات البنائية نفسها. فالشكل التالي يردّها سردًا إزائيًا:

|  |   |  |
|--|---|--|
| هيرودوتس                                       | بريسكس  | البلاذري / ابن خرداذبة                                   |
| (١) خرج كامبرجيا على<br>عهرصة؛                 | قاتل فيروز الهون  | أغار خاقان على الفرس                                     |
| (٢) إذ أنه طُف إليه<br>ابته للزواج؛            | إذ أنه طرح على ملك<br>الهون الزواج من<br>شقيقته لقاء السلم؛ | إذ إن أنوشروان طرح<br>عليه الزواج من ابته<br>لقاء السلم؛ |
| (٣) أما عهرصة فقد<br>زفّ إليه<br>سلفه المخلوع؛ | إلا أنه زفّ إليه أمة؛                                       | إلا أنه زفّ إليه أمة؛                                    |
| (٤) الحناء تكشف عن<br>الحيلة؛                  | الأمة تكشف عن<br>الحيلة؛                                    | أخبر خاقان بالخدعة                                       |
| (٥) نعمة الملك للمغبرون.                       | نعمة الملك للمغبرون.  | نعمة خاقان للمغبرون.                                     |

تتمحور الأحبكة القصصية الأساسية حول الموضوعات الثلاث التالية: وزفاف امرأة غير ذات نسب شريف عوضًا عن أميرة ملكيّة، «الملك المغبون» و«نار الملك من الغبن». أضف إلى ذلك الوظيفة التعليلية التي تؤدّيها الرواية في نسخها الثلاث حيث ربط السرد التاريخي رواية «عروس الغبن» بالحروب الدائرة بين شعيتين. أضيفت إلى هذه الأحبكة القصصية، في الروايتين اليونانيتين، موضوع «خيانة العروس». وعليه يسمح السرد الإزائي للموضوعات المكوّنة باستنباط البناء القصصي لرواية «عروس الغبن»، فنبيّه في الرسم التالي:



يتضح من السرد الإزائي والرسم البياني أمران. من جهة، إن الروايتين اليونانيتين ترابطان برابطة وثقى فقد تأثر رواية بريسكس الخطيب برواية أبي التاريخ، وذلك بدليل السمات المشتركة التي تشمان بها وهي التالية: (١) تتألف كلتا الروايتين من اللحظات الموضوعاتية نفسها و/أو العناصر البنائية وهي، علاوة على ذلك، تترتب في كليهما الترتيب عينه<sup>(١)</sup>. (٢) تسرد كلتا الروايتين الأحداث طبقاً لتابعها الزمني، أما علاقاتها المنطقية بالحادثة الرئيسة الأ وهي الحرب فلا تحظى باهتمام كبير. (٣) تؤدي كلتا الروايتين وظيفة تعليلية بيّنة في سياق النص التاريخي: إنها تبرز بواسطة صيغ لغوية صريحة<sup>(٢)</sup>: (٤) يترتب

(١) لقد تنبه الباحثون إلى كون روايتي هيروودوتس وبريسكس الخطيب ترابطان فأجمعوا على اعتبار هذا الأخير قد اقتبس القالب الأهم المتعلق بـ «عروس الغبن» من سلفه الكلاسيكي. راجع:

Theodor NOLDEKE: Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sasaniden. Aus der arabischen Chronik des Tabari. Leyden: Brill, 1897. pp. 168, N. 6. = J. MARQUART: Erdansatz 58-61. = A. CHRISTENSEN, L'Iran 293, N. 1.

(٢) تبين الصيغ اللغوية التي يستعين بها كل من هيروودوتس وبريسكس لإدراج رواية «عروس الغبن» في سياق السرد التاريخي وتظهر بوضوح الوظيفة التعليلية الخاصة بهذه الرواية، كما أنها تبرز كونها مقصورة قاتنة بذاتها. وهذه هي الصيغ الواردة في كل من النصين:

على كل ذلك أنّ كلتا الروايتين تتصفان ببناء قصصي مصقول فبرزان متميزتين من متن السرد التاريخي. هذا وبناءً على تشابه الروايتين الواضح ونظرًا إلى كون الخطيب قد درج على الاقتداء بمؤلف هيرودوتس يمكننا القول بأن الروايتين ترابطان برباطة مباشرة حيث إنّ الخطيب قد اقتبس من سلفه الكلاسيكي القالب الأدبي فرّظفه في صياغة معلوماته التاريخية.

تمثل النسخة العربية بدورها-رواية متهاسكة ذات-بناء قصصي منسق ومصقول. تتمحور الأبوكة القصصية حول شخصية الملك خسرو أنوشروان مبرزة عبقرته الماكيافلية في التعامل السياسي مع جيرانه من القبائل التركية. تتميز الرواية من سياق السرد التاريخي الرتيب بأسلوبها القصصي الحيّ (الحوار المباشر بين الشخصيتين) وإيراد الأحداث الخارقة (بناء السور العظيمة) وعرض النوادر (أميات خسرو أنوشروان وخاقان). إنّ موضوع «عروس الغبن» تندرج في هذا السياق القصصي.

تتيح لنا هذه المعطيات أن نرى في رواية «عروس الغبن» أقصوصة مستقلة قائمة بذاتها قد أدرجها المؤرخون الأربعة في سياق سردهم التاريخي، سواء أفعالوا ذلك عمدًا وعن وعي (كما هو راجح بالنسبة للخطيب) أم أوردوا الأخبار التي جمعوها وهم لا ينظرون فيها نظرًا نقديًا. وتشكّل هذه الأقصوصة قالبًا أدبيًا يستطيع الكتاب والمؤرخون الاستعانة به لصياغة موادهم الأدبية أو التاريخية.

### إرتباط الأقصوصة بالتاريخ الفارسي

من جهة أخرى، يظهر بوضوح أنّ أقصوصة «عروس الغبن» مرتبطة بالتاريخ الفارسي: هكذا يروي هيرودوتس، استنادًا صريحًا إلى «رواية الفرس»، خبرًا من أخبار ملوك بني هاخامانيش؛ أما المؤرخان البيزنطي والعربي

HERODOTOS III 1(3): «Ἐπὶ τούτων δὴ τὸν Ἄμασιν Καμβύσης (...) = ἑστρατεύετο (...), δι' αὐτὴν τοιγύνη». PRISKOS (CORP. SCRIPT. HIST. BYZ., I 219): (...) ἐν τοῖς μεθορίαις αὐτῶν [= τῶν Περσῶν] τε καὶ Οὐγγῶν τῶν Κιδαριτῶν τὰς διατριβὰς ποιούμενος (...) αἰτίαν ἔχων, ὡς (...).

فيروي كلٌ منها حادثة من أحداث تاريخ الملوك الساسانيين. تتعلّق إذن أقصوصة «عروس الغين» بدائرة الثقافة الفارسيّة. وبهذا الصدد نتفحنا بعض المعلومات التاريخيّة التي من شأنها إلقاء الضوء على بعض نواحي الحياة الثقافيّة في إيران القديمة. فأسوة بملوك بني هاخامانيش، دوّن الملوك الساسانيون أخبار بلادهم في «أخبار الآيام» الرسميّة وهم يركّزون على أمور البلاط. فقد استقى المؤرّخون العرب القدماء، معلوماتهم عن تاريخ إيران القديمة وحياتها الاجتماعيّة من «آيام الأخبار» هذه التي قد نُقلت عن اللغة «الفهلويّة» (PEHLVI) إلى اللغة العربيّة عن يد ابن المقفّع؛ فقد عرفها البلاذري وابن خردادبه. ثمّ عرفت المرحلة الساسانيّة من الثقافة الفارسيّة أدب الأفاصيص التاريخيّة التي استقت مواضيعها من أخبار الملوك؛ وتعلّق العديد من هذه الأفاصيص بشخصيّة خسرو أنوشروان<sup>(١)</sup>.

إذا نظرنا إلى أقصوصة «عروس الغين» في هذا الإطار التاريخيّ فقد استطعنا أن نقرّر فنقول بأنّها تمثّل موضوعاً أدبيّة «رحمالة» ترقى، في آخر التحليل، إلى عصر ملوك بني هاخامانيش. فقد عرفت الثقافة الفارسيّة، في تلك الفترة الموعلة في القديم، أدباً زاهياً من الأفاصيص التاريخيّة؛ إنّ أقصوصة «عروس الغين» إنّما تنتمي إلى هذا الجنس الأدبي<sup>(٢)</sup>. أمّا الأفاصيص المتعلّقة بعلاقات الملوك الساسانيين مع الحكّام الأتراك فقد استقاها مؤرّخو العرب من

(١) لند أوضح (TH. NOLDEKE) تحليل دامع أنّ أخبار الآيام هذه كانت المرّجّع الرئيس والشفّ الذي استقى منه المؤرّخون العرب معلوماتهم لتاريخ الفرس في عصر ما قبل الإسلام. ويرجع الفضل في ذلك إلى ابن المقفّع مترجم آيتم الأخبار هذه. راجع:

Th. NOLDEKE: Geschichte XIV-XXIII. = A. CHRISTENSEN: L'Iran 57-64.

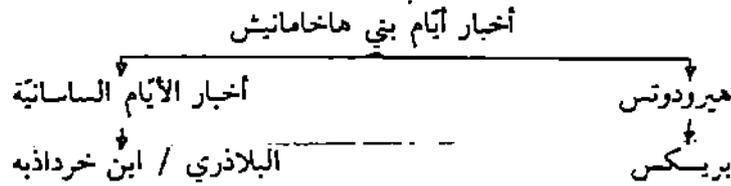
(٢) بذهب البحتّة المنغاري Árpád SZABO في كتابه عن «أفاصيص الفرس التدام» إلى الرأي الذي فحواه أنّ أقصوصة زوج كسرجيا من انة عمهصة المحولة ترقى إلى أخبار الآيام التي دوّنها ملوك بني هاخامانيش. ذلك أنّ هيرودوتس نفسه يجيل الفارئ إلى «رواية الفرس». راجع:

A. SZABO: Óperzsa Novellák. Budapest: Akadémiai Kiadó, 1948. pp. 115 sqq.

والجدير بالذكر أنّ الجزء الثالث من «تاريخ» هيرودوتس (لا سيّما الفصول ١ - ٢٨ منها) يستند إلى أخبار فارسيّة إضافة إلى أخبار معربيّة. راجع:

F. JACOBY: Herodotos. IN: Realencyclopädie der klassischen Altertumswissenschaft, Supplementum II (1913) 427 sqq.

أخبار الأيام الفارسية. وعليه نستطيع أن نبيّن «رُحالة» أقصوصة «عروس الغبن» في الرسم التالي:



هذا وقد توحى هذه النتائج التحليلية للوهلة الأولى بأن بريكس الخطيب يحكي أقصوصة خيالية وهو يقدمها عمداً بمثابة حقيقة تاريخية. وقد ينحو هذا المنحى في كتابة التاريخ طالباً، من جهة، الجمال الأدبي بواسطة الكلام البديع وساعياً، من جهة أخرى، إلى استعراض ثقافته الكلاسيكية عن طريق ترصيع النص التاريخي الجاف والترتيب بمقتضيات من مؤلف أبي التاريخ. إلا أن المعطيات التاريخية والأدبية تدلّ على أنّ فرضية التزوير التعمد للتاريخ خالية من الأساس المتين<sup>(١)</sup>. ثمة سلسلتان من المعطيات.

### الاستناد إلى خلفيّة تاريخية

تتملّك السلسلة الأولى من المعطيات بالخلفية التاريخية لرواية بريكس. فالنسخة العربية لأقصوصة «عروس الغبن» تحتوي على نواة تاريخية يقينة، فقد درج الملوك الساسانيون على عقد الزيجات السياسية مع جيرانهم الشرقيين من الترك والخزر. هكذا يُخبر مثلاً المؤرّخ الأرمني موسى كالنكواجي، بناءً على التقارير الدبلوماسية الفارسية، عن عقود الزواج بين الأسرتين المالكتين الساسانية والخزرية في عصر الملك خسرو أنوشروان<sup>(٢)</sup>. تندرج رواية

(١) لقد تبانت آراء الباحثين فيما يتعلّق بقيمة الأخبار التاريخية التي وردت في رواية بريكس. فقد أضفى عليها (J. MARQUART) طابع حقيقة تاريخية، في حين أنّ (A. CHRISTENSEN) أنكر عليها أية قيمة تاريخية. راجع:

J. MARQUART: *Érānsahr* 58. = A. CHRISTENSEN: *L'Iran* 168.

Moses KALANKATVCI: *Geschichte von Albanien*, I 12. (٢)  
Ed. Schahnazarean. = NÖLDEKE: *Geschichte* 167.

البلاذري وابن خردادبة في هذا الإطار التاريخي: فبناءً على مراجع تاريخية مستقلة يمكن اعتبار زواج ابنة خسرو أنوشروان من خاقان الترك أو الخزر حقيقة تاريخية ترقى إلى عام ٥١٠هـ<sup>(١)</sup>. كذلك نتند أقصوصة «عروس الغين» إلى هذه الخلفية التاريخية. يمكننا أن نتصور عملية تكوين هذه الأقصوصة بالطريقة التالية: لقد صيغت المعلومات التاريخية المتعلقة بالزيجات السياسية، في الآداب القصصية الفارسية، بواسطة القالب القصصي المأثور، حيث أولج في الأدوار القصصية الثابتة فاعلون تاريخيون حقيقيون. ثم انتقلت الأقصوصة الجاهزة من الآداب الفارسية إلى الأدب التاريخي العربي. هذا وتدرج رواية بريسكس الخطيب بدورها في هذا الإطار التاريخي: إطار تاريخ العلاقات بين المملكة الساسانية وجيرانها الشرقيين: إن الفاعلين قد تغيروا، أما نماذج العلاقات والقوالب الأدبية فقد بقيت ثابتة.

تتاول السلسلة الثانية من المعطيات منهج الخطيب في كتابة التاريخ. يبدو واضحاً أنه قد انتهج هذا النهج القصصي بعينه وهو يصوغ رواية زواج كنفخاس من الأميرة المنحولة. على الرغم من أن أقصوصة «عروس الغين» في صياغتها الأدبية وبكل حذافيرها لا تخبر بحقائق تاريخية، إلا أن الخطيب لبعيد عن التزوير المتعمد للتاريخ عن طريق إبدال حكاية خيالية من الوقائع التاريخية: إن منحاه في كتابة التاريخ بصورة عامة إنما يناقض مثل هذه الفرضية<sup>(٢)</sup>. وعليه تتوسط حقيقة منهج في كتابة التاريخ طرفي النقيض هذين حيث إنه قد استعان بالقالب القصصي المأثور في سرد الوقائع التاريخية، والدليل على ذلك أن عنصرين من العناصر المكوّنة لبناء أقصوصة «عروس الغين» يمثلان حادثين قد تأكّدت حقيقتهما التاريخية:

□ يتمثل أولهما في الحرب الدائرة بين ملك القرمس فيروز وخاقان المون

(١) إضافة إلى للمعلومات الواردة في مؤلف المؤرخ الأرميني موس كالكتراجمي، وردت أخبار هذا الزواج في مراجع عربية وفارسية أخرى. وراجع:

NOLDEKE: Geschichte 168. N. 6. = H. H. SCHAEDEER: Iranica, IN: Abhandlungen der Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen, (1934), pp. 41 sqq. = A. CHRISTENSEN: L'Iran 380. N. 2.

G. MORAVCSIK: Byzantionturcica I 482.

(٢)

الكيداريين كونغخاس. يورد المؤرخ السرياني سوشع العامودي أخبار الحرب التي خاضها فيروز ضد قبيلة الكيداريين عام ٤٦٥ م، وهو ينهى بأن هذا الملك قد توجه عام ٤٦٦ م إلى الإمبراطور البيزنطي يتعنه ضد «اهون الذين يسمون كوشانايا»؛ فقد هزم الجيش الفارسي، في هذا العام عينه، هؤلاء الهون «كوشانايا» وأباد جيشهم في معركة ضارية، الأمر الذي اضطّرهم إلى الرحيل نحو الشرق<sup>(١)</sup>. كذلك يسرد بريسكس أخبار الحروب الدائرة بين الفرس والكيداريين عام ٤٦٦ م<sup>(٢)</sup>. إن المعطيات الواردة عند كلا المؤرخين تتوافق لا بل تتطابق، الأمر الذي يدل على كون الخطيب مطلقاً على أحوال المملكة الفارسية. أضف إلى ذلك المؤرخين المصادر الأخرى التي تنسب بالحروب الدائرة بين الفرس وقبائل الهون في الفترة السابقة على عهد الملك فيروز<sup>(٣)</sup>. وعليه من المرجح أن منحة السفير البيزنطي كونستانسوس قد تعلقت بهذه الأحداث.

□ أما العنصر القصصي الثاني الذي ثبت حقيقتها التاريخية فيتمثل في الزيجة السياسية بين الأسرتين المالكتين الساسانية والكيدارية في عهد فيروز. على الرغم من كون بريسكس يتفرد بإنباء خبر هذه الزيجة، إلا أن هذا الخبر لا يخلو من الحقيقة التاريخية. من جهة كانت الزيجات السياسية بين الفرس وقبائل الهون أمراً متأداً عبر العصر الساساني؛ من جهة أخرى قد سردت بعض المصادر التاريخية خبر زواج إحدى بنات الملك فيروز من ملك «اهون البيض»<sup>(٤)</sup>. هكذا يمكننا أن نعتبر العنصر البائتي الثاني في

JOSUA STYLITES, 9-10, Ed. Wright, Cambridge 1882, pp. 7-8. (١)

في مؤلفات المؤرخين السريان والفرس والأرمن، التي على هذه القبيلة الهونية اسم «كوشان»؛ وهذه التسمية الهونية بعينها سُئبت في المؤلفات العربية باسم «هياطة»، أما بريسكس فقد سَمى هذه التسمية باسم «KIDÁPITAI». راجع:

NÖLDEKE: Geschichte 115, N. 2.

والجدير بالذكر أن بريسكس لا يحرر عنى شيئاً وثابتاً في استخدام أسماء الشعوب حيث إنه يلقي مثلاً على نفس القبيلة تارة اسم «اهون» (EXCERP. DE LEG. 153:30; 154) وطوراً اسم «الكيداريين» (EXCERP. DE LEG. 154, 2-3:590, 27)

EXCERPTA DE LEGATIONIBUS, Fragm. 19; 22. (٢)

MARQUART: Êrânšahr 55-58. (٣)

NÖLDEKE: Geschichte 130-132. (٤)

بناء أقصوصة «عروس الغين» حادثاً تاريخياً. أما إن غير الخطيب القالب القصصي المأثور بدلاً من ابنة الملك الفارسي شقيقته فليس ذلك سوى إشارة إلى حيثية من حيثيات مجرى التاريخ.

### مرحلتان في عملية التشكل الأدبي

لقد أتضح مما سبق أن رواية زواج كونغخاس من الأميرة الفارسية تحوي نواة تاريخية مؤكدة على الرغم مما تتصف به من صفات الأقصوصة الأدبية. واستناداً إلى هذه الحقيقة نستطيع أن نبيّن ميزة من ميزات المنهج الذي انتهجه بريكس الخطيب في كتابة التاريخ ونحن نلقي الضوء على عملية تشكل أقصوصة «عروس الغين». لقد تمّت عملية التشكل الأدبية هذه على مرحلتين. من المرجح، من جهة، أن الحادّثين اللّتين توتسان أحبوكة الأقصوصة لا تترابطان في الواقع التاريخي: إن المؤرّخ السرياني يوشع العامودي يجبر بالحرب الفارسية الكيدارية بمغزل عن الزواج بين الأسرتين المالكتين؛ أمّا هذا الزواج فيذكره في سياق آخر. وعليه تعود عملية القرن بين الحادّثين التاريخيين في سياق روائي موحد إلى نشاط بريكس الأدبي: هو الذي أقرن بين الزواج والحرب فتسقها في أحبوكة قصصية متهاكّة مؤنّساً الأقصوصة على هذا المحور. وقد اقتدى الخطيب في عملية التأليف هذه بالأقصوصة الميرودوتية التي بدورها تقرن بين عنصرَي الزواج والحرب فتسقها في أحبوكة قصصية متّعة. إن الكاتب البيزنطي قد اقتبس من سلفه الكلاسيكي هذا القالب الأدبي متعيّناً به في ترتيب معلوماته وتنسيقها في سياق روائي متهاك. تلك هي المرحلة الأولى في عملية تشكل الأقصوصة.

إلا أن الأحبوكة القصصية لما تكتمل: إن عملية القرن بين الحادّثين لا تزال تفتقر إلى التبرير والاستساعة حيث تحتاج الحرب بين هؤلاء والبرابرة، في منظور المؤرّخ البيزنطي المتّقف بالفلسفة اليونانية، إلى العلة ( «αίτιον» ). ولذلك أضاف عنصر «عروس الغين» تعليلاً منه للحرب الفارسية الكيدارية: هكذا عدت أقصوصة «عروس الغين» رواية تعليلية. تلك هي المرحلة الثانية في عملية تشكل الأقصوصة.

إنهى هذا المنهج في كتابة التاريخ إلى تأليف أقصوصة متهاكة مصقولة البناء. وعلى الرغم من كونها لا تتطابق مع الوقائع التاريخية المعروفة بكلّ حذافيرها، إلا أنّها تعرض صورة عن مجرى الأحداث تبقى في إطار الاحتمال التاريخي، وذلك لاعتبارين. من جهة تحوي الأقصوصة نواة من الحقائق التاريخية المؤكدة التي تشكّل بناءها الروائي. من جهة أخرى تتمّ عملية الإنشاء القصصية عن طريق التصرف في المعطيات التاريخية اليتينة وذلك في منظور التعليل المنطقي: تهدف هذه العملية إلى إدخال التماسك في سلسلة من المعلومات غير كاملة. يترتب على كلّ ذلك أنّ الأقصوصة التاريخية المتولدة عن هذا المنهج لا تخرج عن إطار الخلفيات التاريخية التي كانت تشكّل المجتمع الفارسي في عصر الملوك الساسانيين.

لماذا لجأ بريكس الخطيب إلى هذا المنهج؟ تقدّر لنا المعطيات التحليلية بالاستدلال على الاعتبارات التي حفزته إلى ذلك. لقد سعى الكاتب المؤرخ إلى تأليف رواية متهاكة تسرد سلسلة من الأحداث متناسقة: حدا به هذا السعي إلى سدّ الثغرات في المعلومات المتوفرة لديه بغية إيجاد الحلقات المفقودة في سلسلة المعطيات. وعليه فقد قام بعملية الإنشاء القصصية وهو يتبسّ المعطيات الناقصة، لا سيما «علة الحرب»، من مصادر تنسجم منطقيًا مع الإطار التاريخي العام وتسم بصفة الاحتمال. ليس هذا المنحى مدعاة إلى الاستغراب فإنّ السعي إلى تأليف رواية متهاكة المنطق ومتكاملة في بنائها القصصي إنّما هو خاصّة من خواصّ الفنّ القصصي عمومًا وكتابة التاريخ خصيصًا. ذلك أنّ القاصّ، سواء أكان مؤرخًا أم فنّانًا روائيًا، يصبو إلى الوضوح والتماسك في السرد الروائي وبالتالي يسمي إلى تمام استعراض الأحداث. في سبيل الوصول إلى هذا الهدف، يجهّد المؤرخ في استقصاء المعطيات والحقائق التاريخية وهو يبحث بحثًا منهجيًا عن العلاقات السببية والخلفيات الفاعلة في مجرى التاريخ. وإذا عثر على حلقات مفقودة في المعلومات فيحاول استكمالها بالتخمين الافتراضي في إطار الاحتمال التاريخي وهو يحتكم إلى تماسك كلّية المعلومات المتعلقة بموضوع بحثه. وغني عن الذكر أنّ الصدق العلمي يقتضي التصريح بوقوع هذه العملية. أمّا فنّان الرواية فيتصرف في المعلومات التاريخية منقادًا إلى

مشروعه الروائي ضمن حدود المصادقة الفنية<sup>(١)</sup>. إنَّ التاريخ وفنَّ الرواية يتلآن متحيين مختلفين في التَّمفُّصُل بين التاريخ بصفته مسازًا واقعيًا موضوعيًا والكتابة من حيث إنشاؤها نقل التاريخ خطابًا منسًا. فيتجه خطاب التاريخ إعادة إنشاء المسار الموضوعي للواقع الاجتماعي؛ بينما يعرض الخطاب الروائي هذا المسار الموضوعي بعينه في شكل مشهد، لا بل يُخرجه إخراجًا مسرحيًا. فينقاد كلُّ من المنحيين إلى منطقهِ الخاصِّ.

من المعروف أنَّ الأدب اليوناني الكلاسيكي والبيزنطي يتصف فيما يتصف بالتباس خطاب التاريخ والخطاب الروائي بعضهما ببعض. فكثيرًا ما نحا المؤرخون الإغريق والبيزنطيون منحى الرواية في عرضهم للحقائق التاريخية. هكذا استعان أبو التاريخ بأقاصيص ونوادير تاريخية سعيًا إلى استكمال معلوماته الناقصة: إنَّ هذا الأسلوب الروائي يشهد كما هو عليه من الموهبة في فنَّ القصة<sup>(٢)</sup>. كذلك جمع بريسكس الخطيب في بعض مقاطع مؤلفه بين الاستقصاء المنهجي للوقائع التاريخية وفنَّ الرواية. إننا نصلح على هذا المنحى في كتابة التاريخ بمصطلح «الأقصوصة التاريخية». يقوم هذا المنحى على عملية تنسيق فنية. إنَّ المؤرخ يجمع أحداثًا تاريخية مستقلة بعضها عن بعض ويقربها بعضها ببعض منشأً بينها علاقات فنية ضمن حدود المعقولة التاريخية: هكذا تشكّل مشهد روائي منسّ ومتكامل يوافق المسار التاريخي الموضوعي ويتجاوز عنه في آن واحد. فتدرج الأقصوصة التاريخية في إطار التاريخ الواقعي، إلاَّ أنها تخرج عن التاريخ العلمي بالمعنى الاصطلاحي الحديث للتاريخ: إنَّ منحى الأقصوصة التاريخية يتخطى الخطاب التاريخي إلى فنَّ الرواية. أسوة بسلفه الإغريقي العظيم اعتبر بريسكس الخطيب كتابة التاريخ ليس نشاطًا علميًا فحسب، بل نشاطًا فنيًا أيضًا. لقد أثرت هذه النظرة إلى كتابة التاريخ في طريقة تعامله مع الحقائق: على الباحث الحديث أن يأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار.

(١) H. KEITER - T. KELLEN: Der Roman. Geschichte, Theorie und Technik des Romans und der erzählenden Dichtkunst. Essen - Ruhr 1958. pp. 384 sqq.

(٢) W. SCHMIDT - O. STÄHLIN: Geschichte der griechischen Literatur, I. I. München 1934. pp. 640 sqq.

## من منشورات دار المشرق الأدبية

- النزعة الكلاسيكية في أسلوب الجاحظ، للأب فيكتور شلحت اليسوعي، الطبعة الثانية، ١٩٨٧.
- رسائل متبادلة بين إبراهيم اليازجي وقسطنطين الحمصي، حَقَّقها الأب كميل حشيمه اليسوعي، ١٩٨٦.
- بلوغ الأرب في علم الأدب، لجرمانوس فرحات، حَقَّقته إنعام فوال، ١٩٩١.
- كلية ودنة، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي، الطبعة ١٣، ١٩٩٠.
- النقد المرحي عند اليونان، للدكتور عطية تامر.
- الزمان ذلك النحات، ليوحنا قمير، ١٩٨٨.
- أقياء، ليوحنا قمير، ١٩٨٥.
- لو تكملين الغناء، لسليم نكد، ١٩٨٦.
- الخطيئة البيضاء، لميخائيل معروض، الطبعة الخامسة، ١٩٩٠.
- *Louis Cheikho et son livre «Le christianisme et la littérature chrétienne en Arabie avant l'Islam»*, par Camille Hechaï-mé, S.J.